النقد النسوي

يسرى مقدم

لبنان

التباساتٌ كثيرة تحاصر واقع النقد النسوي في العالم العربي، تعوق مشروعه وتمشكلُ مشروع ية وُجوده، أبسطُها ربما عشوائية المصطلحات الاستنسائية المستخدمة في تخصيص ما تكتبه النساء عن النساء، أو ما يكتب عنهن، وبمعزل عمَّا للتخصيص والتصنيف من مقاصدَ عنصرية تنفِّرُ شريحة واسعة من النساء الكاتبات يُريبُها التمييزُ بين الإبداع الرجالي والنسائي أو الأنثوي أو آخر ما هناك من توصيفات الفرز المغرض، بمعزل عن هذا يتخبط النقد النسوي في الدائرة المضيعة نفسها ليرتجل للأنوثة المعبرة أو المعبر عنها نسـ با كتابيا يستلحقها بكنف مصطلح واضح ومحدد يهب الكتابة السائبة بنوة اصطلاحية ترسخه خصوصية الشكل والمضمون، انطلاقا من استنباش إبداعات النساء الكاتبات (الروائيات منهن على وجه الخصوص).

واستكشاف الكيفيات التي يقاربن من خلالها عوالمهن النفسية والجسدية والوجدانية ، والثقافية أحيانا، بما يعيد الاعتبار إلى هذه الإبداعات ويُرسِّي خصوصيتها واختلافها، ويُنْجيها من الغبن والتهميش والإقصاء.

بهذه المهمة العسيرة، يتوكَّل النقد النسوي العربي، مدَّعيا لنفسه القدرة عليها، تأسيسا لكتابة مغايرة تنقض وتخلخل وتهدم الصور النمطية الشائعة حول الأنوثة بمختلف وجوهها وأدوارها، في نصوص الكتاب النساء والرجال على حد سواء، ملوحا بإبداعات تتأنث صوتا وذاكرة وجسدا ولغة إبداعات تدوم افتراضية يبتني النقد المذكور على قاعدتها المزعومة وجودا يدوم هو الآخر افتراضيا . في ظل عيٍّ مُطلق يعجزه عن إثبات خصوصية موهومة شكلا ومضمونا تتبرج في مؤنث الإبداع بأنوثة لفظية لا ماهية لها غير لفظ يشير إليها اسميا، ولا تحذو فيه الأنوثة، كما يجدر بها ما يولد جوهر معناه أو معانيه سيان كان هي الكاتبة أو المنكتبة.

ما ينفي عنها ادعاء الخصوصية، يُعدمها المعني ويبقيها مجرد صـ ورة ملفقة تنتحلُ أفعال الذات المغيبة، لتستظهر في الكتابة ما لقنته، غافلة عن أن التلقين استظهار متواطئ لا يناصرها بقدر ما يختزلها

إلى كينونة فرعية ومستلحقة تدين بالولاء لمحفوظاتها المتطابقة مع فتاوى الفكر الذكوري المهيمن تكرس للأنوثة أسماء حسنى تمجد الضعف، الرقة، الامتثال، الانصياع والتبعية بالطبع.

وفي ما خلا استثناءات معدودة ونادرة، تطغى أسماء الأنوثة هذه على خطاب المؤنث الإبداعي، حتى حين يخاتلُ نفسه ويدعي العكس، ولنا على ذلك بينه في ما تنتهي إليه مصائر البطلات الجانحات، يذهب بهن العصيان إلى الموت أو الانتحـ ـار أو الجنون، وفي أحسن الأحوال إلى التوبة، ناهيك مما تقرئنا إياه عجمية الجسد المتلعثم المكفوف عن أبجديته يلهج في التعبير عن حميمياته بـ ـاستيهامات الرجل السيد المعلم، وشكوى الذات المنفية المرتهنة لصورتها تنضج بصدى اللغة الذكورية لترطن ببلاغة تستعيرها من المفاهيم الجرجانية والجاحظية، تكرس مرة فحولة اللفظ وأنوثة المعنى، ومرة تجير للفظ المذكر الزواج بما شاء من بنات المعنى تناظرا مع ما يشيع في الاجتماع الإنساني.

لئن كان هذا حال المؤنث الإبداعي المتماهي بصورته الاجتماعية، المترسم في التعبير عنها فنيـا وموضوعاتيا سياقا نمطيا، يبقيه أسير الجماليات المهيمنة، ويلزمه بالحرص على مـا تـستوجبه أسمـاءه الحسنى من مقتضى الأفعال العرفية، ما يجافي جوهره، وينافي خصوصيته، ويصير الكتابة ترددا مكرورا لواقع الاستفراد الإبداعي المحكوم بسلطة ذكورية تفتي بما تشاء في الحياة كما في الإبداع، لـئن كـان الحال هذا، فما بالك إذن بحال النقد النسوي المتخبط في خلط مصطلحي، وتيه منهجي وقصور نظري !

هذا النقد العييِّ الفاقد لأسباب الحياة طالما يرتجل وجودا افتراضيا يتعكز فيه على فراغ خاو من ابداعات مؤنثة لم تتراكم بعد لتشكل إرثا حقيقيا تتبدى فيه سمات الاختـ ـلاف والخصوصية، بما يقـدره على صوغ خطاب يغاير الخطاب التقليدي الشائع حول الأنثى/المرأة.

ثم لئن كانت وظيفة النقد المجتهد، أي نقد التفكيكَ والخلخلةَ والنقضَ، مـن منظـور الهـدم والبناء، فمثل هذا النقد عاجز عن الهدم فما حالك بالبناء !. نسألكم من النصوص تخلى عن نمـ ـطيتـه وخالف سلفيته تحت سطوة هذا النقد المزعوم؟ وكم من القرارات النقدية الجدية نجـح في التأسـيس لقاعدة نقدية ثابتة يحتكم إليها؟

ألا يشير ذلك إلى فشل النقد النسوي مرتين : مرة بما هو مشروع إيديولوجي، فالنسوية على ما نعلم مذهب فكري متعدد الأبعاد، لم يتحزب له عربيا نتاج عربي وجدير بالدراسـة يؤهلـه لإرسـاء أحكام ومعايير تميزه، ومرة باعتباره مشروعا تحريريا لم يحصد من الانتصارات ما يكفي، ولم تحشد مـا تحشده في العادة مشاريع التحرير الأخرى المحكومة بقوامة الذكـ ـورة، تُنغم الذكور النـصر والـسلطة،

وتديم الأنوثة تابعة ومملوكة، وإن شاركت فشراكتها هامشية أو ظرفية، أو اتباعية، تماما كما في الكتابة والإبداع. كما لو أن الحرية حرمٌ على المرأة ما لم يتول الرجل فيها القوامة، فهو المحرر، وهي المحررة حتى في الموضوعات التي تخصها وحدها، يقتصر دورها فيها على الانفعال لا الفعل بتوافق مدهش مع أحكام اللغة التي تميز فاعلية اسم الفاعل وانفعالية اسم المفعول.

المرأة في التحرير مثل الأرض /التراب/الوطن، تلقي من التمجيد ما تلقاه هذه الرموز، كان لا كينونة لها خارج الترميز، على هذا النحو يمجد ا لإبداعُ الرجالي والنسائي المرأة فينقلب وجودها إلى موضوع وجود، أو موضوع ملكية تحصن ضد الغير، ويُزاد عنها . لا على أنها وجود يقوم بذاته، بل بغيره، بتساوق كامل هذه المرة مع أحكام الاجتماع، فهي ابنة فلان وزوجة فلان وأم فلان، تستمد قيمتها وأحقية وجودها من نسب ذكوري تُستلحقُ به، وهي للمفارقة من ينجبه ويهبه الحياة فيجزيها بالاختزال ثوابا حسنا يحولها إلى رمز للوطن يعادلها به أو يعادله بها سيان فالمعادلة في الحالين قصاص لكائن بشري لا يناله من حقوقه الطبيعية المساوية لحقوق الآخر غير الترميز يرفعه إلى مصاف المجردات، ما يعني تجيد المرأة من طبيعة إنسانية وتتر يهها عن المدركات الحسية ما خلا فعل الإنجاب الذي يطهرها من لذة الجنس ويرتقي بها إلى مرتبة الأمومة، بكل ما تفترضه آيات الأمومة من طهرانية وبذل وتضحية ونكران للذات ما يميت الجسد، -كيلة إلى آلة، مجرد آلة لحفظ النسل.

صورتان معظمتان تحظى بهما المرأة : صورة تتخلق على شاكلة وطن مملوك للسيد، مرهن لقوامته، وصورة بمقدار ما تبقي على آدمية المرأة شكليا .تنزع عنها جوهر آدميتها لما تحيلها إلى أمومة صنمية معبودة ومعلولة في آن باستيهامات الذكورة حولها، تنصلح لها المرأة /لأم تصدقها وتلا زم إطارها لا تغادر إلا بالموت يأتيها طبيعيا أو اجتماعيا إذا ما عست أو جنحت أو خشت بيمين الإطار .هكذا

تحاصر الصورتان كينونة المرأة، تخضعها لقوامة مؤبدة تزين لها الحق باطلا والإماتة مجدا سماويا، والمجرد الذهني تساميا إلى ملكوت العلي، وفي كلا الصورتين تقصى الم رأة عن الشراكة العادلة، فهي مواطن ناقص الأهلية يحرر ولا يتحرر، وهي كائن منزوع الحقوق عن وجوهه المتعددة، ما خلا وجه الأمومة تعاقبها أحكام اللغة هي الأخرى، في تواطؤ يتناغم مع الأحكام والإبداع أيضا.

فهل لنقد نسوي مرتجل أن يعول بعد هذا على إبداع نسائي /نسوي/أنوثي، ينوله المراد في ظلِّ تواطؤ جماعي؟

وعلى مثل هذا التواطؤ لنا شاهد، في ما حدثت به أحكام اللغة. فهي التي تجتهد وتسوس الاجتماع. وهي التي تؤمه بمعنى الإمامة التي يؤثَّم بسننها، ما يجعلها مثالا يحذو الاجتماع حذوه، على

هذا يجوز لنا اعتبار أحكام اللغة حاضنا اجتـ ـماعيا يتعهد ما تتعهده الأم في الاجتماع من وظائف الرعاية والتنشئة، مثلها يحتضن القيم والقواعد والمفهومات، ومن وحي مثاله ينشئ مـــا يـــستقيم بـــه حـــال الاجتماع بما في ذلك قوله في الأصول والفروع فالأصل في اللغة المذكر /الذكر/الرجل/الـــزوج/ الأب وهو صاحب القوامة، والمؤنث فيها الفرع /الأنث/الزوجه/ الأم/نة، يعني ما ينبني وجوده على أصله . كما أن الأصل، في المقابل، وبحسب المعجم الفلسفي، ما يطلق على الدليل بالنسبة إلى المدلول عليـــه . فهذه ابنة فلان، أو زوجة فلان أو أم فلان، ما يبين نسبها /وجودها الاجتماعي على غيرها الذي هـــو أصلها.يقيم حكم التوافق بين قواعد اللغة وفلسفتها واجتماعها . وما يعارض في الآن عينه مع حكم المعاجم اللغوية حيث الأم هي أصل الشيء "أم كل شيء أصله وعماده"

وبناء على هذه الأحكام، ثمة ما يفتح باب الأسئلة المُشكلة حول ثغرة أو ثغرات قـــد ترتِّـــبُ للمؤنث الإبداعي حيزا في اللغة، على أن تُساءَل اللغة بأدواتها عملا بمقولة هيكمان "ما يفكك بيـــت السيد، هي أدوات السيد " فليست بمقدور النسوية فكرا أو إبداعا أو نقدا أن تقفز خارج اللغة لتخترع لغة أخرى. فاللغة أرضية ثابتة فيما ليست لأدواتها مثل ذلك.

تلك إشكالية برسم المساءلة والبحث، نطرحها على الإبداع النسائي /النـــسوي كمـــا النقـــد النسوي، علَّهُما يتمنطقان بسلاح الثغرات يعملان فيها حفرياتهما، ومنها يستنبطان القرائن والبينـــات، كيلا يبقى الإبداع ممثلا صرف والنقد المزعوم مجرد ارتجال.